البدوي والحمامة

عبد العزيز مشري

قال البدوي:

الحمد لله، ماتت الزوجة العجوز، وتزوّج الولد المقتدر، وبقي لك، يا هرم اليدين، أيامٌ بعد الستين، لا تعلم نهايتها، ومعك من المال والقطيع - هذه الأيام - ما يفيض عن حاجة المحتاج في أوّل مهام الحياة.. فكيف بمثلك يعدّد بقايا أرذل العمر؟!.

***

حَامَ وطافَ، وحطَّ وشدَّ، واستقرّت به مشورةُ الخاطر عند بنت فلان:

وجهها كالصَحفة، وعلى صدرها يركض الخيّالُ.. جمالٌ، وسوء حال ستصلح مع ذي مال وعزلةٍ مثلك. وإن كان شاسعُ السن بينك وبينها بعيداً، فالمال يحقّق المحال.

***

عدّد ريالاته لشراء العروس؛ وثَمِلَتْ أُذُنا الأب من حرشفة الورق الجديد.

بعد أيّام.. كانت الصبيّةُ في الحضن، وفي العين وبين اليدين الراعشتين كالحمامة في قبضة المقتني.

هاجتْ وماجتْ، نزفتْ حوارقُ العين، وغامتْ بالفظاظة والكحل والحلي والنفَس المحموم، فقالت لوَيْح الضلوع في الظلمات: تسلّي بِرَعْيِ القطيع، وانظري هذا المخرِّف حتى يجيء يومٌ قريب.

***

قلّب البدوي في سلاحه، فرآه بعد سن العجز كالخرقة البالية. وتلمّس قرارة صدره، فرآه يتآكل بالحسرة والغيظ.. صفّق الكف بالكفّ، وبصق على بياض ذيل اللّحية المدلاة وغمغم:

«تكفي يا بو فلان»!.

في الصباحات يحوم حول الصبيّة، ويزأر كالملدوغ، فتصعد شنعاء الغيرة.. يمنعها من الخروج إلاّ قُدّام العين تطوف بالقطيع.. حتى كاد يجعل على سراويلها القفلَ، وفي خطوتها القيْدَ.

***

ضُحى اليوم..

قال لها إنّه سيعود قبل أن تكمل باللسان عدَّ المائة، وخرج في مشوار بعيد إلى سوق يجمع البدوَ والحضرَ.

تراءى مع صديق قديم، أن يأخذه إلى الطبيب، فاقتادته الفرحة.

أمام الصديق الذي نازعه في قبول العلاج، رفض البدويُّ هذا الدواءَ الذي يفسُد فعلُه بعد يوم.

وعاد إلى عروسته، وقدماه - كما يقولون عن الهزيمة - : «تخطّ الطريق».

***

بات الليلةَ كما يبات المسلوبُ الجائعُ، بلا عشاء، ولا كلام.

وفي شرقة الشمسِ، كانت يده في يد صديقه القديم، وترافقا إلى الطبيب. قال البدوي:

يحفظك الله يا حكيم.. هات الدواء، ولو كان لساعة.

و..

قبض الطبيب القيمة مبتسماً أضعافاً، وهو يقول:

اذهبْ إلى حبيبتك في الحال، وافعل كما يفعل الرجال.

***

نقَّبَ بالصوت اللحوح في البيت وحوله عن العروس، فما جاءه ردا!.

تلعلطَ وتمططَ، وقافز بساقيه، وثرثر في الفضاء بحركات من رقبته ويديه، فرأى المنكودة على مقربة حولها القطيع. فدعاها لأمرٍ لا يحلّ الإبطاءُ عنه.

وكالحذفة بالحجَر.. جاءت الحمامةُ الخائفة، ولما كانت في قبضة المقتني كالرجفة.. صاح:

ألم تأتك هذه الملعونة الحمراء، إلا الآن؟!.. هيا، طريق بيت أبيك.. من هنا.

جدة